

بين الجغرافيا والتاريخ

الدكتور مالك الاحمد

نشر في كتاب

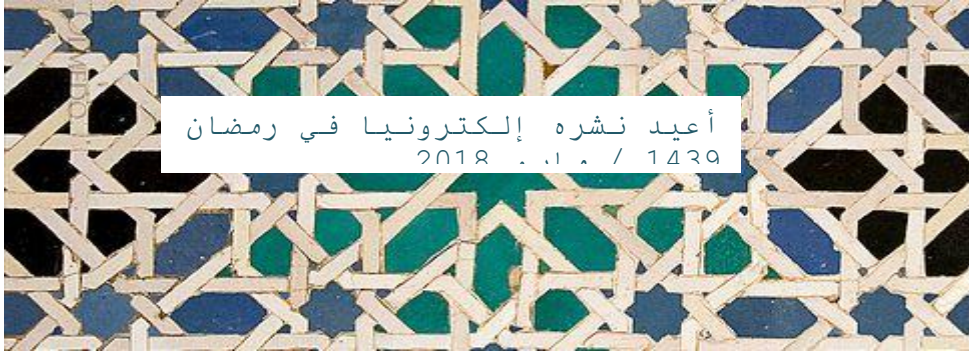
البعث الرسالي لمجلس التعاون
الخليجي

"بلاد الجزيرة العربية"

(سلسلة مشروعات ثقافية)

إعداد إدارة البحوث والدراسات

وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الدوحة، 2002م



بين الجغرافيا والتاريخ

الدكتور مالك الأحمد (*)

(*) باحث أكاديمي.. (المملكة العربية السعودية).

تميزت هذه المنطقة بخصائص جغرافية وتاريخية، كانت حاضرة في حياة السكان ونشاطهم، فالطبيعة وقسوتها كان لها الأثر في تشكيل جيل متفرد في الماضي، ومؤهل لأن يكون كذلك في المستقبل، إذا وعى المعطيات المتوفرة ومقومات الانطلاق.

يطلق مصطلح الجغرافيا على المنطقة والسكان، على البيئة والمناخ، على الاقتصاد والإمكانات البشرية والمعطيات الإنسانية، أما التاريخ فيشمل النشاط الإنساني على مر الزمان شاملاً الجانب الحضاري والعقدي والثقافي، الأحداث والوقائع، الرجال وسيرهم، والمنطقة وما مر بها.

والجزيرة العربية مرت بتغيرات جغرافية وأحداث تاريخية مهمة كونت الحاضر وحفظت معطيات المستقبل.

تميزت هذه المنطقة بخصائص ومميزات كان لها الأثر في التاريخ وكانت الجغرافيا حاضرة في السكان ونشاطهم والطبيعة وقسوتها عليهم، شكلت جيلاً متفرداً في الماضي ومؤهلاً أن يكون كذلك في المستقبل، إن اعتبرت المعطيات المتوفرة ومقومات الانطلاق .

خصائص جزيرة العرب:

هيا الله هذه المنطقة من الخصائص ما يجعلها متفردة ومتميزة عن غيرها، في

مجموعة من العناصر:

السكان: يشغل الجزيرة العربية العرب من قبائل شتى لكنهم إما عرب عاربة

كقحطان وإما عرب مستعربة كعدنان، وكانت بلاد العرب خياراً إلهياً لتكون مهبط آخر الرسالات البشرية:

فالرسول ﷺ عربي من قريش، بل من أفضل قبائل قريش، من بني هاشم، وقريش من أفضل قبائل العرب، والعرب بمؤهلاتهم وبقبائلهم المتعددة من أفضل الشعوب والقبائل على وجه الأرض على الإطلاق، كما قال الرسول ﷺ: «...أنا خيار من خيار»⁽¹⁾، أي من العرب، ثم من قريش، ثم من بني هاشم. هذا الاختيار الإلهي للعرب جعل اليهود يحقدون ويمكرون، وقبل ذلك يرفضون دعوة الإسلام؛ لأنهم توقعوا أن يكون خاتم الأنبياء منهم.

تميز العرب بخصائص عديدة جعلتهم أهلاً لحمل الرسالة في الجزيرة العربية، وتبليغ الأمانة، هم أهل الشجاعة والإقدام، والمروءة والنخوة، والصبر والتحمل، والكرم والجود.

المرأة لها حقها ومكانتها، ويقولون «تجوع الحرة ولا تأكل بثدييها» أي لا تزني، رغم وجود البغايا، وهن غالباً من الإماء، وكانوا أهل تعظيم للشعائر الدينية، كالأشهر الحرم والحج.

كانت فطرتهم سليمة رغم ما اعترأها لاحقاً من ملوثات.

وكان استعدادهم البشري عالياً لقبول دين الله، وكانت قريش محط احترامهم: «الناس تبعاً لقريش، مسلمهم تبعاً لمسلمهم، وكافرهم تبعاً لكافرهم».

(1) أخرجه الحاكم والبيهقي.

وعن جابر بن عبد الله، قال ﷺ: «غَلَطُ الْقُلُوبِ وَالْجَفَاءُ فِي الْمَشْرِقِ
وَإِلْيَمَانُ فِي أَهْلِ الْحِجَازِ»⁽¹⁾، وقد مدح رسول الله ﷺ الحجاز والشام ودم كثيراً
المشرق؛ لأنها مصدر للفتن ومخرج الدجال.. وهم عددياً ليسوا بالكثيرين، لكنهم
مع ذلك يتناقصون وتقل نسبتهم، كما جاء في الحديث: في آخر الزمان: «لَيَفِرَنَّ
النَّاسُ مِنَ الدَّجَالِ فِي الْجِبَالِ، قَالَتْ أُمُّ شَرِيكٍ: يَا رَسُولَ اللَّهِ فَأَيَّنَ الْعَرَبُ يَوْمَئِذٍ؟
قَالَ: هُمْ قَلِيلٌ»⁽²⁾.

البيئة : تميزت الجزيرة العربية ببيئة فريدة ، فرغم قسوة المناخ صيفاً وبرودته
شتاءً إلا أنها تمر بفترات زمانية قل أن تجد لها مثيلاً في العالم - هذا إذا جادت
السماء بالأمطار - لم تكن البيئة سهلة لكنها كانت مواتية والتحم أهلها بها،
وقلما فارقوها إلا في أوقات الجفاف الشديدة المتوالية. أثرت هذه البيئة على
الناس فكانوا جزءاً منها، وارتبطوا بوديانها وسهولها وجبالها، وعرفوا شجرها
وحجرها، وتعايشوا معها بالكامل .

مرت جزيرة العرب في أحقاب بعيدة في التاريخ بفترة من الخضار وستعود
إليه، كما قال ﷺ: «لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَعُودَ أَرْضُ الْعَرَبِ مُرُوجًا وَأَنْهَارًا...»
(3)

الموقع: هي وسط بين الشرق والغرب، في العالم القديم خصوصاً ، وعند ظهور
العالم الجديد (أمريكا) أصبحت تسمى "الشرق الأوسط"، وهذه الواسطة في

(1) أخرجه مسلم.

(2) أخرجه مسلم.

(3) أخرجه أحمد.

المكان كان له دور في نقل التجارة قديماً بين الشرق والغرب ولاحقاً في نقل الإسلام ونشره بين تلك الشعوب.

الدينية: اختار الله في جزيرة العرب وادياً مقفراً لم يعرف بالسكن من قبل وليس فيه ماء ... اختاره الله ليبي في الكعبة، ويكون هذا البلد حرماً آمناً: «إِنَّ هَذَا الْبَلَدَ - أَي مَكَّةَ - حَرَّمَهُ اللَّهُ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ، فَهُوَ حَرَامٌ بِحُرْمَةِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ»⁽¹⁾.

وكما اختار الله مكة مكاناً للبعثة ، اختار المدينة مكاناً للهجرة وحرمها كما حرم مكة، وجعلها مؤثلاً لأهل الإيمان : «إِنَّ الْإِيمَانَ لَيَأْرِزُ إِلَى الْمَدِينَةِ كَمَا تَأْرِزُ الْحَيَّةُ إِلَى جُحْرِهَا»⁽²⁾.

وفي الحديث الآخر: «إِنَّ الْإِسْلَامَ بَدَأَ غَرِيبًا وَسَيَعُودُ غَرِيبًا كَمَا بَدَأَ، وَهُوَ يَأْرِزُ بَيْنَ الْمَسْجِدَيْنِ كَمَا تَأْرِزُ الْحَيَّةُ فِي جُحْرِهَا»⁽³⁾.

وقال ﷺ: «سَيَعُودُ بِهَذَا الْبَيْتِ - يَعْنِي الْكَعْبَةَ - قَوْمٌ لَيْسَتْ لَهُمْ مَنَعَةٌ وَلَا عَدَدٌ وَلَا عُدَّةٌ، يُبْعَثُ إِلَيْهِمْ جَيْشٌ حَتَّى إِذَا كَانُوا بَبِيْدَاءَ مِنَ الْأَرْضِ حُسِفَ بِهِمْ»⁽⁴⁾.

وفي آخر الزمن عندما يخرج الدجال ويعيث في الأرض فساداً فإنه لن يدخل مكة والمدينة حيث الملائكة تحرسها وترده على أعقابها.

(1) أخرجه البخاري.

(2) أخرجه البخاري.

(3) أخرجه مسلم.

(4) أخرجه مسلم.

دين واحد: لم تكن وصايا الرسول ﷺ لمن بعده كثيرة، فقد بين الدين وأقام الحجّة ، لكن بعد انتشار الإسلام في الجزيرة العربية ، وبدء مناطق الروم ولتطهير الجزيرة من العربية والشرك، أوصى الرسول ﷺ بإخراج أهل الكتاب من المنطقة فقال: «لا يُتْرَكُ بِجَزِيرَةِ الْعَرَبِ دِينَانِ»⁽¹⁾.

والأمر كما هو واضح ليس قاصراً على أهل الكتاب، فالوثنيين من باب أولى، فلا يقبل في الجزيرة مشرك ولا يهودي ولا نصراني، فقط أهل الإسلام. هذه خاصية لجزيرة العرب فقط ولم تكن تشمل بلاد الشام مثلاً رغم أهميتها عن بقية المناطق .

همزة الوصل مع الشام: من تقدير المولى عز وجل وحكمته أن أمر أبا الأنبياء إبراهيم الخليل عليه السلام أن يتوجه إلى مكة ويترك فيها زوجته هاجر وابنه إسماعيل ليقوم كيان جديد في المنطقة، قائم على التوحيد، ويعيد - بعد ذلك - بناء بيت الله الحرام في هذه البيئة المجدبة لتكون منطلقاً لحضارة جديدة تسود العالم.

كان إبراهيم عليه السلام همزة الوصل بين بيئتين ومنطقتين حبيتنا بخصائص خاصة، فبلاد الشام كانت أرض النبوة والرسالات، وهي البلاد التي بارك الله فيها ومدحها في كتابه، وهي أيضاً أرض المحشر، وقبلها هي أرض الملاحم ومهبط عيسى عليه السلام في آخر الزمان، أما جزيرة العرب فمهبط الوحي وبلاد خاتم الأنبياء والمرسلين، وهي موئل الإسلام ومأزره، وأيضاً مستقبله.

(1) متفق عليه.

واجتماع بلاد الشام مع جزيرة العرب لم يكن فقط في عهد إبراهيم الخليل عليه السلام، حيث بنى هو وولده الكعبة المشرفة وترك أحد أبنائه رسولاً ونبياً في العرب بينما حمل الرسالة في بلاد الشام أخوه إسحاق.

العلاقة استمرت مع مبعث خاتم الأنبياء محمد ﷺ من ولد إسماعيل، وكان ﷺ يقول: «أنا دعوة أبي إبراهيم»⁽¹⁾، مصداقاً لدعائه عند بناء الكعبة مع إسماعيل: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾⁽²⁾ رَبَّنَا وَأَبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿البقرة: 128-129﴾، وقد أمر أن يصلي إلى المسجد الأقصى في الشام.. حتى في إسرائه ﷺ كانت البلاد الطيبة هي الهدف، حيث اجتمع الأنبياء وأمهم ﷺ وهي منطلق معراجه إلى السماء، وتم هذا التواصل في البيئة والدين والقبيلة .

التاريخية: استمر التوحيد في بلاد العرب بعد إسماعيل ما شاء الله أن يكون، ثم بدأ الشرك يدب فيهم، ويقال إن عمرو بن لحي هو أول من أدخل الشرك إلى جزيرة العرب من الشام - حيث كانت أسبق للشرك من الجزيرة العربية -، وزاد الشرك حتى ساد العرب، وكان عقيدتهم الأساسية رغم الاستثناء اليسير من وجود بعض الموحدين على ملة إبراهيم الخليل.

ورغم انتشار الشرك فأثار الدين باقية وبعض الأخلاق قائمة، حتى بعض رسومه استمرت كالحج، وتعظيم الأشهر الحرام، وتعظيم مكة والبيت الحرام، والطواف.

(1) أخرجه ابن عساکر في "التاريخ"، وصححه الشيخ ناصر الدين الألباني، سلسلة الأحاديث الصحيحة.

لكن الشرك نخر في العقول والقلوب فكان أمر الله أن يبعث فيهم من يعيدهم
ثانية إلى التوحيد .

رغم الصعوبات التي واجهها الرسول ﷺ من قريش إلا أن البيئة - عموماً-
كانت خصبة للدعوة، وكان عدد الداخلين يزداد، وفشا الإسلام في كافة قبائل
قريش.

كان لاختيار مبعث النبي ﷺ في هذه البيئة حكمة، ذلك أن القوم رغم
سلبيات الجاهلية الكثيرة أفضل من كان على وجه الأرض، وكانوا مهينين ذاتياً
لحمل الدعوة ونشرها خلاف البلدان الأخرى.

فالاختيار لم يكن قاصراً على النبي ﷺ نسباً بل بيئة ومنطقة، وكانت الآثار
عظيمة والنتائج باهرة، فهذا ربيعي بن عامر الأعرابي يدخل على كسرى في أوج
قوته وجبروته بيده الرمح يخرق النمارق ويرفع صوته عالياً: «جئنا لنخرج العباد من
عبادة العباد إلى عبادة رب العباد».

انساح العرب - بعد أن استقر لهم الأمر في الجزيرة - شمالاً وشرقاً،
واخضعوا أقوى دولتين، فارس والروم، وأقاموا أقوى حضارة، وأصلوا أفضل
وأعدل حكم على الشعوب، حتى دخل الناس في دين الله أفواجاً.

هذه البيئة القاسية أنتجت رجالاً لا يعرفون الخوف، ولا يقرهم الخور،
رهباناً بالليل فرساناً بالنهار، حتى أن الروم والفرس استهانوا بهم في بداية الأمر
وعرضوا عليهم الطعام - إن كان ما أخرجهم الفقر - وعرضوا عليهم الكساء إن
كان هذا مطلبهم، حتى بدا لهم بعد ذلك أن هؤلاء ليسوا طلاب دنيا بل
طلاب آخرة، يعشقون الموت كما يحبون هم الحياة .

ورغم القرون الكثيرة الجميلة والفاضلة التي أطلت على هذه البلاد إلا أن النخر عاد من جديد، والجهل بدا يفشو، حتى سادت البدعة وظهر الشرك، فكان أن قيض الله لهذه البلاد رجلاً صلباً، علم دين الله وأصر على نشره، رضي من رضي وخالف من خالف. كان مُحَمَّد بن عبد الوهاب مجدد عصره ومعلم شعبه، أزال آثار الشرك من الجزيرة العربية، ومحي آثاره، وأعاد التوحيد نقياً صافياً، وما زالت آثاره باقية حتى الآن وإن غاب الكثير منها مع الهجمة الغربية وقلة العلماء وضعف الدعاة.

بين الزمان والمكان : لم يأت الثناء المحض من رسول الله ﷺ لبلاد في العالم إلا ثلاثة: مكة، والمدينة، والقدس، وذلك لما بها من مساجد ذات قداسة خاصة، ليست لغيرها من المساجد، لذلك شرع السفر لها وحدها فقط. ولم يكن مبعث النبي ﷺ في مكة ومهاجره إلى المدينة قضية عبثية، بل كانت عقدية حضارية، وأخيراً بيئية.

لم يتوافق البعد المكاني والعقدي والبشري وحتى الزمني كما توافق مع جزيرة العرب، فأهلها من العرب هم خيار الناس، وجنسهم مفضل على غيرهم من الأجناس، وهم أولى الناس، وهم كما تشرفوا بصاحب الرسالة فهم أولى الناس بحمل الأمانة وأدائها إلى غيرهم من الشعوب والأمم، ولئن ضعفوا أو استكانوا في بعض الأزمان فهم أولى بالعودة وتسلم الراية من جديد.

في العقود الأخيرة ظهرت الصحوة الإسلامية في العالم، لكنها كانت أقوى ما يكون في جزيرة العرب، وأشدّ عوداً وأصلب موقفاً.

كانت الحركة العلمية أكثر انتشاراً في هذه البيئة، والدعوة العالمية تتحرك فيها، وما يكاد بلد من بلاد المسلمين أو غير المسلمين إلا وقد وصله وفد منهم أو مال لمساندة مشاريعهم .

العودة: في آخر الزمان عندما يضعف العرب ويتفرقون ويتناصرون، يقيض الله لهم رجلاً منهم يشبه نبيهم ويطلق اسمه (المهدي مُجَّد بن عبد الله) يقودهم بالكتاب والسنة ويجمعون عليه، ويتحرك بهم لإحقاق الحق ونشر العدل، حتى يعم الخير الناس، ولا يجد المتصدق من يقبل صدقته مما هم فيه من الغنى.

مقومات الانطلاق نحو المستقبل:

تتميز الجزيرة العربية بالعديد من العناصر والمقومات التي سوف تساعد على انطلاقة قوية نحو المستقبل في كافة المجالات، ومنها:

- **في الجانب الاقتصادي:** ثروات معدنية هائلة، وأهمها النفط والغاز، الذي مازال وسيستمر لفترة طويلة في المستقبل مصدراً رئيساً للطاقة في كافة بلدان العالم.

- **في الجانب السياسي:** تتميز المنطقة بتشابه أنظمة الحكم فيها والاستقرار السياسي البعيد المدى، ورغم التفاوت فيما بينها قريباً وبعيداً عن تطبيق الشريعة الإسلامية، إلا أن التوجه العام هو اعتبارها جزءاً من منظومة الحكم ومقررة في الدستور.

- **في الجانب التاريخي:** تميزت المنطقة بتاريخ مشترك واحد تقريباً منذ بعثة النبي ﷺ، وحتى في زمن الاستعمار الغربي لم تواجه المنطقة إلا استعماراً واحداً

بخلاف مناطق أخرى من العالم العربي والإسلامي. وفي أزمنة التشتت والخلافات، كان الغالب أن قبائل المنطقة هي المحرك للأحداث وليس من خارجها .

مقومات دينية:

يبقى العنصر الديني دائماً من أهم العناصر ومقوم أساس لوحدة الشعوب والمجتمعات ومصدراً أساساً لانطلاقة عالمية .

والجانب الديني ليس قاصراً على وجود قبلة المسلمين (مكة) ومهاجر النبي ﷺ (المدينة) رغم أهميتهما دينياً، كما سبق الإشارة إليه، فالأمر تعدى ذلك إلى تحول المنطقة إلى مصدر للإشعاع الديني حول العالم ، فالمنطقة مركز نشر وتحقيق وطبع التراث الإسلامي، ومركز الثقافة الإسلامية سواءً باللغة العربية أو حتى باللغات الأخرى، وهي المرجع في القضايا الدينية الفقهية، وتحوي أكبر عدد من العلماء وطلبة العلم، ولها دور ضخم في توجيه المسلمين في بقية أنحاء العالم .

إضافة إلى ذلك، فالمنطقة أقوى وأهم مصدر للأنشطة الخيرية الإسلامية سواء في العالم الإسلامي أو غير الإسلامي ، فالملايين من الدولارات تخرج من هذه البلدان إلى أفريقيا وآسيا و أوروبا وأمريكا للدعوة والتوجيه والإغاثة والمساعدة، مما ساعد الكثير من الشعوب الإسلامية على مقاومة التنصير، وأنقذها من ظلمات الجهل، فضلاً عن آلاف بل عشرات الألوف الذين دخلوا الإسلام عن طريق جهود المنظمات والجمعيات الخيرية التي انطلقت من المنطقة.

مقومات حضارية:

لا تنفك الحضارة عن الثقافة، والمنطقة تملك من الثقافة الشيء الكثير، بين الكتب أو في صدور الرجال، وكان للحركة الثقافية في العالم العربي نصيب هام في الجزيرة العربية، رغم البدء المتأخر والمشاركة المحدودة، لكنها تميزت ثقافياً - في الغالب - باعتمادها البعد الديني والإرث العقائدي المحلي، وليس النظريات والأفكار والعقائد المستوردة .

مقومات جغرافية:

تميزت المنطقة بموقع متوسط في العالم القديم وموقع قريب من الحضارات ومركز الديانات، مما جعلها ترتبط حتى مع العالم الجديد لحاجة (الآخر) إليها وليس العكس.

مقومات بشرية:

يسيطر جيل الشباب على المنطقة، فالذين لم يتعدوا 15 سنة يقاربون نصف عدد السكان، مما يجعل البيئة شابة، ويساعد على بناء كيان المنطقة في كافة مناحي الحياة مستقبلاً.

وشعوب المنطقة شعب واحد في الحقيقة، فاللغة واحدة والدين واحد، وحتى المذهب السائد (السنّي) واحد.. وفي الطبيعة الاجتماعية، فالناس تعيش بطرق متشابهة ومتطابقة أحياناً، مما يجعل الحديث دائماً عن شعب واحد وليس شعوباً مختلفة كما هو في الكثير من مناطق العالم.

أخيراً:

عندما يتداخل التاريخ مع الجغرافيا في بيئة مثل الجزيرة العربية، يأخذ البعد الزمني أثره والبعد المكاني موقعه، فإننا نأمل بل نلمس تغيرات إيجابية واسعة تقود المنطقة إلى ريادة إنسانية وتأثيرات عالمية في الحضارة والثقافة، في الشريعة والاقتصاد، مما يؤهلها أن تكون محوراً رئيساً ومحط أنظار الآخرين وميدان اهتمامهم.. من بيتها ينهلون، ومن عطائها يستفيدون، وبهديها يقتدون، وبرسالتها يأملون بسلام عالمي واستقرار إنساني.